مِن بوز أثر الطلق عليها بالدخان
يملك الجو وماء البئر يشقى فى هوان

« . »

وهو قد يملك أيضاً امرء أنى نزل
مالك حرية الفرد بمعصوم الجبل

اسماعيل سرى الرهشاه

قصة البخت النائم

للشاعر عثمان علمى

قصة « البخت النائم » هذه قصة فارسية الأصل أكبر الظن أنها وضعت أيام كانت للفلسفة الالهية فى الشرق سوق نافقة تعرض فيها مذاهب المتكلمين فى القضاء والقدر والجبر والاختيار وما اليها من المسائل ، معززة بالدليل المنطقى أو بالقصة الطلية تؤثر فى النفس من طريق الشعور، غير معتمدة على الاساليب الجدلية والقضايا المنطقية .

وهى تتلخص فى أن أخوين ورثا من أبيهما نصيبين متساويين ـ أرضاً زراعية ـ ثم أخذ كلّ يستغل مزرعته فأفلح أحدهما حيث أخفق الآخر ، ومن ثم حسد هذا أخاه وتمادى به الحقد حتى فكر فى اغتياله . غير أن طيف الأب تراءى له وتحدث اليه فنزع من رأسه نية الاغتيال ولكنه لم يستل الضغينة من قلبه ، فاعتزم السطو على

جنة أخية عساه أن ينال من شجرها وثمرها وزهرها منالاً يفتأ غيظه ويروّح على كبده ، حتى اذا همّ بانتقامه انبرى له «بخت» أخيه ماثلا لديه فى إهاب حارس فام بباب تلك الجنة يذود عنها شرة كل عادٍ فى غلة ربها الوادع فى هناءته المطمئن فى رخائه .

وتحدث « البخت » الى يحيي فألقى فى روعه أن يقظته هي سر نجاح أخيه . أما بخته هو فنائم فى قفر سحيق . فاذا أراد ان يحاكى أخاه فلاحاً وسعادة فما عليه الا ان يوقظ ذلك النائم من سباته بعد أن يجتاز ما بينهما من صعاب وعقبات .

فالمسألة هنا هى كما ترى مسألة حظ صاحٍ وآخر نائم، أو هى مسألة قضاء وقدر لادخل فيها لكفاية ولا لاختيار .

ومضى يحيي يجتاز الامصار ويجوب الفيافى والقفار ، وكما نجا قبله أبطال القصص من الفرسان والشطار ، فكذلك نجا يحى من كل ما اعترض طريقه من الأهوال والاخطار . نجا من الاسد لا يروى من ظمأ ولا يشبع من جوع ، ونجا من قاطع الطريق صاحب الكنز الدفين ، ونجا من الملك لم يسعده الملك ولا أفاء عليه أمناً أو هناءة . نجا وهو منهم على موعد لقاء يدلى لكلٍّ فيه بما أفتى «البخت» من جواب مسألة أو طب لداء .

وأخذ يحيي السير حتى بلغ مداه فاذا هو على رأس نائم يغط فى نومه العميق ، فلما أيقظه أسرّ اليه هذا أنه هو بخته فأخذ يحيي يناجيه بآلامه وآماله فهدّأ البخت روعه وأفتاه فيما سأله ووعده بالسعادة والهناءة .

وعاد صاحبنا أدراجه يحتث الخطى نحو بلاده وقد استطار الفرح لبه وركبه شيطان الطمع والغرور . فلما التقى بالملك وأطلعه على سر قلقه وشقائه عرض هذا عليه أن يشاطره ملكه فأبى واستكبر ، ومضى حتى اذا التقى بقاطع الطرق أعرض كذلك عن كنزه وكلّ ما حوى من أموال ونفائس غوالٍ . وهكذا أضاع الفرصة ولم يبق بدٌّ من أن ينقلب حظّه عليه غصة ، فما هو الا أن وقع على الاسد وعلم هذا من ضلاله وفساد رأيه ما علم حتى وقع عليه الاسد يفرى لحمه فرياً ويطحن عظمه طحناً ويطويه فى الهالكين .

فالمسألة هنا هى كما ترى مسألة سوء رأى وفساد تدبير ، لا مسألة قدر لامفر منه ولا محيص .

هذه هى القصة . أما معالجة مواقفها وتصوير مواقعها واثارة دفائنها واستخراج عبرها ومواعظها وصقل مبانيها وإحكام معانيها وبعث الحياة قوية دافقة فى أجوائها ووقد الاضواء جلية ساطعة فى أرجائها فقد وفق الى ذلك الشاعر المجدّد المطبوع عِتماد حلمى توفيقاً كبيراً ؟

محمد أبو العز

* * *

تمهيد

كانتْ الدُّنيا التى نحيا بها والتى نمرحُ فى أحزانها
والتى ندخل من أبوابها دون أن نجفل من سلطانها
والتى نجهلُ من أسبابها كل ما يدعو الى إحسانها
والتى تَسْخرُ من طلابها والتى قامت على ميزانها

رسلٌ للغيب مِن صُنع القدمْ
كانت الدنيا ولا زالتْ قسمْ

مرَّ قابيل ومرَّت بعدَهُ أممٌ فى الأرض من أمثالِ
كلها ينشدُ فيها سعدَهُ ويُرجى الخيرَ فى اعمالِ
كم سعى الانسان فيها جهدَهُ وتمنى النجح فى آمالِ
ثم يأبى الحظ الا ردَّهُ رغم ما يبذلُ فى إبدالِ

كانت الدنيا ولا زالتْ قسمْ
وحظوظ الناس من خط القلمْ

كتب الغيبُ وللغيب قلمْ ليس يمحى خطه حتى العدمْ
انما الدنيا حظوظ وقسم كلُّ حىٍّ حظه فيها رُسِمْ
أيها الثائر فيها لا تلم زدت فى الثورة حزناً وألمْ
وتذكر أنت من لحم ودم أنت من مثل عظام ورممْ

ان من أحيا وأفنى الناس لم
يُطلع الناس على ما قد علمْ

بيديه خط من خير وشرْ صوراً فى الكون تتلوها صورْ
بعضها يُحزِنُ والبعضُ يَسرّ هكذا يفيء تاريخُ البشرْ
كلُّ ما مرَّ من الناس خبرْ أو رواياتٌ على الارض تمرْ
وهى فى الدنيا لمن عاشَ عِبرْ وغبيٌّ الناس من لم يعتبرْ

وحياةُ الناس ليلٌ مدلهمْ
والتجاريبُ دروسٌ وحكمْ

عاشَ فى الارض مع الاسلافِ مَنْ عرف المطويَّ من أنبائهمْ
قصصاً يقرؤها أهلُ الفطنْ فيشيع النورُ فى آرائهمْ
ويرون الحقَّ فيها لمْ يكنْ منكراً الا لدى أهوائهمْ
أيها الساعى مع الايام كنْ من دعاةِ الخير لا أعدائهمْ

وتعلم فحكيمٌ من عَلمْ
قصصاً تمحق بالنور الظَّلَمْ

انما اكتبُ يا قارىء لكْ قصةً فى كل عصر مُثِّلَتْ
لم يقفْ يوماً عن السير الفلكْ لا ، ولا الاعمارُ يوما اجّلتْ
يبرح النورُ ويغشانا الحلكْ ويرى الموتَ غداً مَن لم يمتْ
سنةُ الدنيا فمن يحيا هلكْ أى مخلوق من الموت فلتْ

قصةٌ واحدةٌ عمرُ الاممْ
فرحٌ نزرٌ وجمٌّ من ألمْ

هذه القصة أرويها كما سُمعتْ من والدٍ عن والدِ
ليس لى حظٌ بها إلا بما سوفَ أجزاه بنقد الناقدِ
قصة واحدة ماجتْ بما بيد الفرد القدير الواحدِ
قصة تحكى لنا ما رُسِمَا فى الورى من صادرٍ أو واردِ

أن ما قد كان من صنع القدمْ
كانت الدنيا ولا زالتْ قسمْ

القصة

كان فى فارس فى عصرٍ مضى رجلٌ من خير ابناء العجمْ
قطع العمرَ رضيّاً ، والرضى يبرىء الانفس من كل ألمْ
مؤمن القلب بتصريف القضا يزرع الارضَ ولا يصغى لهمّْ
ظلّ فى نعمته حتى قضى بعد أن جاز بها حدَّ الهرمْ

ترك الدنيا ولم يحزنْ ولمْ
يعرفِ الحقدَ ولم يدرِ الندمْ

لم يكن للشيخ إلا ولدان عُنى الشيخُ طويلا بهما
ورثاه فى سلام وأمان واستغلا بَعْدَه أرضهما
حرص الاثنان لايختصمان حكما العدلَ على ما اقتسما
وعلى الحسنى تولى الفتيان رضيا القسمة لم يختكما

لغريبٍ أو قريبٍ لهما
وانتهى الامرُ ولم يختصما

وتولّى كلُّ فرد منهما شأنه ما خلا أو أحجما
واستمدّا العونَ من رب السما واستعانا الله فى امرهما
يبرحان الصبحَ يسعى بهما أملٌ يبعثُ من عزمهما
وإذا الليلُ سجا أو أظلما عاودا دارَهما واعتصما

وهما أضعف من أن يعلما
ما طواه الغيبُ يوماً لهما

ومضى بالولدين الزمنُ وهما بين كفاح وجهادْ
ونتاج الارض هذا ثمنُ للذى قد بدلا وقت الحصادْ
وهو إمّا سىءٌ أو حسنُ ربما جاءهما لا كالمرادْ
ومن الارض جوادٌ محسنُ ومن الارض حرىٌّ بالفسادْ

يتجلى الحظُّ ما بين العبادْ
لا بكدٍّ لهمو او باجتهادْ

وهنا تلمح بطشَ القدرِ وهنا تعرف ضعفَ البشرِ
فأخٌ يرشف كأسَ الظفرِ وأخٌ يجرعُ كأسَ الكدرِ
روض هذا حافلٌ بالثمرِ وخلا ثانيهما من ثمرِ
لم يدع ثانيهما للنظرِ بهجة من قيمة أو منظرِ
خصّه الدودُ بأكل الزهرِ
إنْ بدا فى الروض بعضُ الزهرِ

تربةُ الارض هنا واحدةٌ كيف جاد البعضُ والبعضُ أبى
جنةٌ تربتها جاحدةٌ نَبتها يورى الامى والغضبا
فهى فى إقفارها هامدةٌ بينما الاخرى تفيض الذهبا
والليالى نفسها شاهدةٌ وهى لا تدرى لهذا سببا
يا لضعف الناس مما كتبا
كاتبُ الغيبِ لهم واحتجبا

عاودا الزرعَ فهذا ظافرٌ أينما يسعى وهذا خاسرُ
أملٌ ناءٍ وحظٌّ عاثرٌ وفؤادٌ ضلّ عنه الناصرُ
واذا الظافر بشرٌ ظاهرٌ وفؤادٌ بالامانى عامرُ
كلما لاحَ لأمرٍ خاطرٌ منه فى الدنيا فسعدٌ حاضرُ
أملٌ دانٍ وعيشٌ ناضرُ
وأميرٌ أين ولّى آمرُ

فاذا ما اختلتَ فى جنتهِ خلتها الفردوسَ من فيضِ الثمرْ
واذا أبصرتَ من غرتهِ خلتها من فرحةٍ نورَ القمرْ
يبعثُ البهجةَ من بهجتهِ أينما ولّى وأيان حضرْ
وافر الاجلال فى عيشتهِ مستحبّ القولِ محبوب السمرْ
هكذا الحظ اذا أعطى غمرْ
واذا أدبر بالناس سخرْ !

واذا ما سرتَ فى الاخرى فما تبصرُ العينُ جميلا أبدَا
فهشيمٌ أو قضيبٌ حُطِّما حصدَ الدودُ بها ما حصدَا
ان هذا الامر من وحى السما ليس من صنعِ حقودٍ حقدَا
وكذا الحظ اذا الحظ رمى يقهرُ النفسَ ويبرى الجلدَا
واذا شئتَ صلاحاً أفسدا
واذا أضرمتَ ناراً أخمدا

بعد هذا الصبر والجهد الطويلْ وحياةٍ حفلت بالعملِ
يأسَ المنكودُ من كل سبيلْ لصلاحٍ وانثنى فى ملَلِ
ثائراً فى غضبة القلبِ المللْ جازعاً فى حسرةٍ أو وجلِ
ويناجى النفس فى همٍّ ثقيلْ فى حياةٍ مُلئتْ بالعللِ
خائرَ النفسِ قليلَ الاملِ
غاضبَ المهجةِ جمَّ الجدلِ

وجدالُ النفسِ فى خيبتها موجعٌ فى وقعه كالندمِ
فى كراها هو أو صحوتها ألمٌ ما مثله من ألمِ
يتولى النفس فى هدأتها ولو ان النفسَ نفسُ المجرمِ
انما الانفسُ فى ثورتها تتلظى كاللهيبِ المضرمِ
فاذا ما سكنتْ لم تُرحَمِ
مِن ضميرٍ صامتٍ لم يعْلَمِ

كم تمنَّى الموتَ والموتُ قريبْ وبعيدٌ فهو فى جدِّ الشبابْ
كلما حاوله لا يستجيبْ منه قلبٌ فيه موفور الطلابْ
موقفٌ فى هذه الدنيا عصيبْ وعجيبٌ فهى دار للعجابْ
كل ما فيها مخيفٌ ومريبْ وهى تجرى بالورى جريَ السحابْ
ولكم ذلتْ وعزتْ من رقابْ
بينها وهى مجالٌ للصعابْ

وكذا فكّرَ فى قتل أخيهِ وتجلتْ فيه روحُ الحسَدِ
لا كريهٌ ، لا ولا غيرُ كريهِ ما سيأتيه غداً فى موعدِ
وطّدَ العزمَ على ما يبتغيهِ واحتوته نزعاتُ الجسدِ
كلما ثارت حقودُ النفس فيهِ يستمدُّ العزم عونَ الجلدِ

ومضى يرقبُ إصباحَ الغدِ
فى سكونٍ كسكونِ الابدِ

أأخى أفضلُ منى ؟! إننى كدتُ أن أفقد عقلى كمدا !
وعجيبٌ انه يفضلنى لا بعقل أو ذكاءٍ ابدا
خصّه الله بحظٍّ حسن أكثر المالَ لهُ والولدا
ويكادُ الحزنُ أن يقتلنى وغدت نفسىَ لا تخشى الردى

والليالى لم تَدَعْ لى جلدا
لا ، ولا بالنفسِ للخيرِ صدى

حِرْتُ فى أمرى وفى أمر الزمنْ وأخى هذا طروبٌ ينعمُ
خبرونى من يحطّ الحظَّ مَنْ ؟ إننى مقصدَه لا أفهمُ !
ليس فى الدنيا جميلٌ أو حسنْ كل ما فيها حياة تؤلمُ
ان من صوّر حظى لم يزنْ أبداً بالعدل فيما اعلمُ

فأرى الدنيا بنفسى تظلمُ
وحياتى حسرةٌ أو ألمُ

وهنا عاودَهُ صوتُ الضميرِ ورأى والدَهُ كالشَّبَحِ :
كُفَّ يا يحيى عن الامر الخطيرِ أىُّ شرٍّ ولدى لم يُفضحِ
بئس هذا من سبيل ومصيرِ كلُّ عذرٍ ولدى لم يُفلحِ
اننى يا ولدى خيرُ نذيرِ لك فارجع للهدى وانتصحِ

ومضى عنه خيالُ الشبحِ
وهو فى جلسته لم يبرحِ

ما الذى أعملُ ؟ انى حائرُ وفؤادى بالاسى لايستقرْ
ويح حظى ! إن حظى جائرُ وضميري ليس يدعونى لشرْ
أأخى جعفر هـذا غادرُ أم هو الحظُّ بآمالى غدرْ ؟
فهو أنـّى سار يوماً ظافرُ وهو أنى كان بالـكسب ظفرْ
سوف أمحو كلَّ ماخطّ القـدرْ
بيدى ، إنى عنيدٌ مقتدرْ !

غير أن القتلَ أمرٌ جللُ ما الذى أكسبهُ من بعدِ قتلِهْ
أترى يفعم قلبي الاملُ أمْ ترى يهجرُ قلبى بعضُ غلّـهْ
أم ترى يهدم قلبي الوجلُ أم ترى أفزع من رؤيةِ ظلّـهْ
إننى يثقـلنى مايَـثقلُ والدّمُ المسفوك يُعيينى بحملِهْ
وأظلُّ العمرَ مهموماً لأجلِهْ
ربما أهلـكته من غيرِ قتلِهْ

أسرقُ الناضجَ من أثمـارِهِ حين يرخى الليلُ أستارَ الظلامِ
وأزيل الزهرَ عن أشجارِهِ وأرى أمثاله كيفَ انتقامى
فاذا أصبح فى أنصارِهِ لم يروا فى روضه ايَّ حطامِ
ثم يعفى الروض من آثارِهِ غير آثارٍ توارت فى القتامِ
وهنا ترفلُ نفسى فى السلامِ
ولو انى ذقتُ فى هذا حمامِى

ومضى يسرق من روضِ أخيهِ فى هدوء الليل والناسُ نيامْ
واثقاً بالنجح فيما يبتغيهِ كلُّ ما يحملُ حقدٌ وانتقامْ
وبدا السخطُ على الايام فيهِ واضحاً والسخطُ ينميه الظلامْ
ان فى تدميره ما يشتهيهِ فهو لاصبرٌ لديه أو سلامْ
لا ، ولا فى الارضِ حقٌّ أو نظامْ
لا ، ولا فيهـا حلالٌ أو حرامْ !

(البقية فى العدد الآتى)